٢ - دعوة محمد

لتوماس كارليل
الأستاذ عبد الموجود عبد الحافظ

اعجاز القرآن :

إن الذى حبب القرآن إلى قلب العربى ، وجعله يترك دينه وما وجد عليه آباءه ، وما ورثه من قديم الزمان من تقاليد وعادات ، هى فضائله وأولاها فضيلة الإخلاص المحض الصراح ، فهذه الفضيلة تعتبر منشأ كثير غيرها من الفضائل ، لأن الإخلاص هو أساس النجاح فى كل شئ . كما أن فيه نظرات نافذات إلى شؤون الحياة . وإنى أرى فى القرآن ميزة خاصة وهى قدرته العظيمة على أن يوقع فى أذهاننا كل ما جاء فيه ويجعلنا نؤخذ به ، وهذا لاشك مرجعه إلى أن ما جاء به لا يقصد منه إلا إصلاح أمورنا والأخذ بأيدينا إلى الصراط السوى

أنا لا أهتم كثيرا بما جاء به القرآن من الصلوات والتمجيد والتحميد ، لأنى أرى ما يقاربها فى الإنجيل ، ولكنى لا أملك نفسى من شدة الإعجاب بما جاء به من نظر ينفذ إلى أسرار الكون وبواطن الأمور التى تهمنا جميعا ، وخاصة فيما يحيط بنا من أسرار الكون العجيب الذى لا نهاية له . ذلك الكون الذى كان محمد إذا سئل أن يأتى بمعجزة قال . حسبكم بالكون معجزة عظمى « قل انظروا ماذا فى السموات والأرض » أنظروا إلى السموات وكيف بناها وزينها بالنجوم والكواكب وما لها من فروج.. وإلى الأرض التى خلقها لكم وبسطها وجعل لكم فيها سبلا تسلكون فى مناكبها وتأكلون من نباتها وتتمتعون بخيراتها « والله جعل لكم الأرض بساطا لتسلكوا منها سبلا فجاجا » « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور » « أمن جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسي » « والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج » « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج . والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج . تبصرة وذكرى لكل عبد منيب . ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد . والنخل باسقات لها طلع نضيد . رزقا للعباد . وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج » « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون »

وهذا السحاب المسخر بين السماء والأرض يسير فى الآفاق ثم ينزل مطرا فيحيى الأرض بعد موتها ويخرج منها أعنابا ونخيلا ونباتا مختلفا أكله.. أليس كل هذا آية دالة على وجود الله وقدرته. وأن القرآن من الله لا من صنع البشر. « الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم » « الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه فى السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون » « وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها »

وهذه السفن وكثيرا ما يذكر السفن كأنها الجبال العظيمة المتحركة تمخر عباب البحار وتسير فى موج كالجبال تنشر أجنحتها وتنتقل من مكان إلى مكان بما ينفع الناس « والفلك تجرى فى البحر بما ينفع الناس » « والفلك تجرى فى البحر بأمره » « وسخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » « وهو الذى سخر لكم البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه » وهذه الأنعام المختلفة الأصناف خلقها لكم ترعى الكلأ ، ثم تخرج لكم من بين الفرث والدم لبنا خالصا سائغا للشاربين . « وإن لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين » « وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن

أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين » « والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ، ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون ، وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرءوف رحيم ، والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق مالا تعلمون »

وأنتم يا أبناء آدم يامن تدلون بقوتكم وتفاخرون بقدرتكم ماذا كنتم ؟ إنكم لم تكونوا شيئا مذكورا ، ثم خلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق ، ثم جعل لكم جمالا وقوة وعقلا ، ثم تهرمون وتضعفون وتهن عظامكم وتموتون ، فإذا جاء يوم القيامة عدتم إلى حياة أخرى ، أعادكم الرحمن الذي وهبكم الحياة الأولى . « ... فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام مانشاء إلى أجل مسمى . ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكي لايعلم من بعد علم شيئا » « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ثم إنكم بعد ذلك لميتون ، ثم إنكم يوم القيامة تبعثون » أليست كل هذه وغيرها آيات ناصعات دالة على قدرة الله وعلى أن هذا الكتاب من عند إله قوي قدير مدبر للكون ، يعلم السر والظاهر ويدبر شؤون المخلوقات ؟ إنه لا ينكر هذا إلا جاهل متعصب

الجنة والنار في القرآن :

الجنة والنار من الموضوعات التي كثر ذكرها في القرآن وهما رمز لحقيقة أبدية ، لم تصادف من حسن الذكر والعناية بالشأن كما صادفت في القرآن . لقد ذكر القرآن الجنة وملاذها ونعيمها ، ومن هم الذين سيدخلونها « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا خالدين فيها لا يبغون عنها حولا » « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا . أولئك لهم جنات عدن تجري من تحتهم الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثيابا خضرا من سندس وإستبرق متكئين فيها على الأرائك نعم الثواب وحسنت مرتفقا » « إن المتقين في جنات ونعيم فاكهين بما آتاهم ربهم ووقاهم ربهم عذاب الجحيم . كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون . متكئين على سرر مصفوفة وزوجناهم بحور عين ... وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون . يتنازعون فيها كأسا لالغو فيها ولاتأثيم . ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون » « في جنات النعيم على سرر متقابلين يطاف عليهم بكأس من معين بيضاء لذة للشاربين » « مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم »

وذكر النار وشدة بأسها وعذابها تنكيلا بأهلها ، ثم ذكر من هم الذين سيدخلونها . جهنم المتغيظة التي لا تشبع أبداً التي وقودها الناس والحجارة . « إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقاً وهي تفور تكاد تميز من الغيظ » « إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيرا » « إنها لظى نزاعة للشوى تدعو من أدبر وتولى وجمع فأوعى » « يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد »

وأما أصحابها فهم الأخسرون أعمالا » الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا »

وأنت ترى في أماكن كثيرة مقارنة بين أصحاب الجنة وأصحاب النار وما يلقاه كل منهما جزاء ما عمل « هل أتاك حديث الغاشية وجوه يومئذ خاشعة عاملة ناصبة تصلى ناراً حامية تسقى من عين آنية ليس لهم طعام إلا من ضريع لا يسمن ولا يغني من جوع » . « وجوه يومئذ ناعمة لسعيها راضية في جنة عالية . لا تسمع فيها لاغية . فيها عين جارية . فيها سرر مرفوعة وأكواب موضوعة ونمارق مصفوفة وزرابي مبثوثة » « إن شجرة الزقوم طعام الأثيم كالمهل يغلي في البطون كغلي الحميم . خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم ، ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم ذق إنك أنت العزيز الكريم . إن هذا ما كنتم به تمترون » ، « إن المتقين في مقام أمين في جنات وعيون يلبسون

من سندس وإستبرق متقابلين ، كذلك وزوجناهم بحور عين ، يدعون فيها بكل فاكهة آمنين لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ووقاهم عذاب الجحيم »

ثم يصور قيام الساعة ويوم الحشر إذ يجتمع الناس ليأخذ كل منهم كتابه الذى أحصيت فيه أعماله « فأما من أوتى كتابه بيمينه فيقول — فرحاً مغتبطاً بما نال من حسن الجزاء على ما قدمت يداه فى الحياة الدنيا — هاؤم اقرأوا كتابيه » « وأما من أوتى كتابه بشماله فيقول — حزيناً مهموماً قد فقد أمله فى النجاة وعلم أنه حقت عليه كلمة العذاب — يا ليتنى لم أوت كتابيه »

هذا اليوم الذى فيه تذهل الأم عن رضيعها والأب عن ابنه والزوج عن زوجته ، بل يتمنى الإنسان الذى أخذ كتابه بشماله أن يفتدى نفسه بأمه وأبيه وصاحبته وأخيه وكل من له صلة به « يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد » « يوم تكون السماء كالمهل وتكون الجبال كالعهن . ولا يسأل حميم حميما. يبصرونهم يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه وصاحبته وأخيه وفصيلته التى تؤويه ومن فى الأرض جميعاً ثم ينجيه » « يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه ، لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه »

ما ذا نرى من هذه الصور الواضحة والتصويرات القوية ؟ وما المقصود من هذا الإسهاب فى ذكر هذه الأشياء ؟ إن شيئاً واحداً هو المقصود بكل هذا التصوير المنظم للحقيقة الروحانية الكبرى أم الحقائق التى بنى عليها نظام المجتمع وحياة العالم . أعنى بها الواجب وجسامة أمره ، لأنه أمر خطير جسيم والحياة بغير واجب شىء لا قيمة له ولا شأن . إن كل هذه الأشياء التى ذكرت تبين لنا قيمة الإنسان فى هذه الحياة وأنه لم يخلق هملا حقيراً — وهذه القيمة نأخذها من جسامة ما ألقى على عاتقه من واجبات هو مطالب بها محاسب عليها — بل إن لكل مهما حقر ، عمل إنسانى له خطره وقيمته ، وله على هذا الجزاء والأجر « ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضما » « من يعمل سوءاً يجز به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا » ويتجلى لنا هذا القول ظاهراً قويا فى بعض أقوال محمد التى منها « إنكم لم تخلقوا عبثاً ولم تتركوا سدى » . فمن كان عمله سيئاً فله من السوء نتيجة أبدية — ألا وهى جهنم التى وصفت — ومن كان عمله صالحاً فله ثمرة صلاحه السرمدية — وهى الجنة التى وعد المتقون ..

إن الإنسان قد يصل بأعماله إلى أعلى عليين فيصبح رفيقاً للملائكة والصديقين والشهداء والصالحين . وقد يهبط بأعماله إلى الدرك الأسفل من الحياة ، فيصير ممن طردهم الله من رحمته وحرم عليه نعيم جنته التى وعد بها أصحاب الأعمال الصالحة

لقد كانت روح محمد ذلك الرجل الذى عاش فى الصحراء ، تلتهب بكل هذه الخواطر التى أوحى بها إليه ربه ، بل إنها نقشت على قلبه هى وبقية أجزاء القرآن الأخرى بأحرف من نور فصهرت نفسه الآدمية وأحالتها إلى روحانية صافية سمت إلى درجات العلى ... لم يكن محمد بالأنانى ولا بالمستأثر بالخير دون سواه ، فقد حاول أن يجعل من أصحابه صورة منه ، ومن تابعيه قوماً صالحين ليضمن لهم التلذذ فى الدنيا والآخرة . فحاول مخلصاً كل الإخلاص جادا كل الجد أن يصور ما يجول فى نفسه من خير للناس ويوضح لهم حقائقه ، فقدمه لهم فى تلك الصور الباهرة التى منها صورة الجنة والنار ، بل واستطاع أن يبين لهم أى ثوب لبسته تلك الصور من الحقيقة ، وأى قالب صبت فيه حتى جعل هذه الصور كلها مقدسة عند المسلمين مصدقة عند عامتهم وخاصتهم لا يقبلون فيها جدلا ولا يرغبون فى غيرها بديـــــلا

يأخذ البعض على الصورة التى رسمها القرآن للجنة والنار ، تغلب الحسية والمادية ويقولون إن هذه الحسية قد أفقدت هذه الصور بهجتها وحدت من خيال السامع لأوصافها . ولكن فات هؤلاء أن الصور التى رسمها القرآن ليست حسية مادية — كما يقولون — ولكن القرآن روحانى سماوى فقد أقل جدا من إسناد الماديات والحسيات إلى ما صوره من صور وأن كل ما جاء فيه خاصا بهذه الصور وخاصة الجنة والنار إنما هو إيحاء وتلميح

لكن العيب على هذا كله يقع على الشراح والمفسرين الذين قاموا بتفسير ما جاء فى الكتاب المبين ، فهم الذين لم يتركوا متعة